رقم البحث: 19

القيمة الفنّيّة للرّسائل السياسيّة في العصر الأمويّ

محمّد الأوّل إسحاق

طالب الماجستير في الأدب العربي القديم بالجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا
muhammadauwal.ishaq@yahoo.com

ملخص

إنّ الرّسائل السياسيّة في العصر الأمويّ فن عربيّ نثريّ، عُرِفَ منذ أقدم العصور، وما زالت أهمّيّته قائمة إلى زماننا هذا؛ وهو فنّ معروف بالمراسلة والمكاتبة، أي النّصّ الّذي يخاطب الكاتبُ فيه الغائبَ عن طريق اللّسان والقلم، وبقيّة الأدوات الّتي تُسْتَخْدَمَ في الكتابة في تلك الفترة.وقد نهضت الرّسائل السياسيّة بالّدور الذي أنيط بها في تطوّر النّثر العربيّ، وبالتحديد في العصر الأمويّ، وأدّت إلى ظهور طبقة من الكتاب الّذين يمتلكون قوّة الأسلوب والثّقافة العربيّة العالية، أمثال: عبد الحميد بن يحيى الكاتب، وأبو العلاء سالم بن عبد الله، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وغيرهم. وقد كانت هذه الرسائل تُستَخْدَمُ لقضاء التبعات السياسية للدولة، بسبب البعد الجغرافي الذي يفصل بين الناس. وقد تمت هذه المراسلات السياسية بين الحزب الأمويّ الحاكم، وبين الأحزاب المعارضة، كالشيعة، والخوارج، والزبيريين. وطبيعي أن تكون لهذه الرسائل قيمتها الفنية والأدبية التي ميّزتها، بدءًا من الرسائل التي توالت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وخلافة أمير المؤمنين عليّرضي الله عنه، والفتن التي حدثت في زمن الصحابة، حتى استقرّ الحكم الأمويّ لأول خليفة، وهو معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، إلى آخر خلفاء بني أمية، وهو مروان بن محمد (41-123هـ).وقد امتازت الرسائل السياسية في العصر الأموي بخصائص فنية وأدبية، منها: موضوع الرسالة، وافتتاحها بالبسملة، وذكر التحميدات والثناء على الله تعالى بعدها، وعنوان الرسالة، وانتهاء الكاتب من مقدمة رسالته ليفصل بينها وبين مضمونها، والخاتمة، وتذييل الرسالة، واستعمال الجمل الدعائية والاعتراضية، والألفاظ الغريبة مع جزالتها وترادفها، وروعة التصوير الفني في التعبير الكتابي، والإيجاز، أو الإسهاب في بعضها، مع أداء الغرض واستيفائه بأسلوب عربي فصيح سهل، والوضوح، والفصاحة، والاقتباس من القرآن الكريم، والتمثّل بالشعر العربي، وغير ذلك. وتتجلّى هذه القيمة الفنّيّة من خلال المحورين:المحور الأول: بناء الرسالة. والمحور الثاني: الخصائص الأسلوبية. ثم ذكر أهم نتائج البحث، وملاحقة، والمصادر والمراجع.

الكلمات الرئيسية: القيمة الفنية ، الرسائل السياسية، العصر الأموي

المقدّمة

إنّ الرّسائل السياسيّة فن عربيّ نثريّ، عُرِفَ منذ أقدم العصوروازدهر في العصر الأمويّ ، وما زالت أهمّيّته قائمة إلى زماننا هذا؛ وهو فنّ معروف بأسماء أخرى، المراسلة والمكاتبة، أي النّصّ الّذي يخاطب الكاتبُ فيه الغائبَ عن طريق اللّسان والقلم، وبقيّة الأدوات الّتي تُسْتَخْدَمَ في الكتابة في تلك الفترة.

وقد نهضت الرّسائل السياسيّة بالدّور الذيأنيط بها في تطوّر النّثر العربيّ، وبالتحديد في العصر الأمويّ، وأدّت إلى ظهور طبقة من الكتاب الّذين يمتلكون قوّة الأسلوب والثّقافة العربيّة العالية، أمثال: عبد الحميد بن يحيى الكاتب، وأبو العلاء سالم بن عبد الله، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وغيرهم. وقد كانت هذه الرسائل تُستَخْدَمُ لقضاء التبعات السياسية للدولة، بسبب البعد الجغرافي الذي يفصل بين الناس. وقد تمت هذه المراسلات السياسية بين الحزب الأمويّ الحاكم، وبين الأحزاب المعارضة، كالشيعة، والخوارج، والزبيريين. وطبيعي أن تكون لهذه الرسائل قيمتها الفنية والأدبية التي ميّزتها، بدءًا من الرسائل التي توالت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وخلافة أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه ، والفتن التي حدثت في زمن الصحابة رضي الله عنه ، حتى استقرّ الحكم الأمويّ لأول خليفة، وهو معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، إلى آخر خلفاء بني أمية، وهو مروان بن محمد (مُحَرَّمْ رَبِيعَ الثَّانِي – رَبِيعُ الْأَوَّلِ صَفَرْ مُحَرَّمْ هـ).

وقد امتازت الرسائل السياسية في العصر الأموي بخصائص فنية وأدبية، منها: موضوع الرسالة، وافتتاحها بالبسملة، وذكر التحميدات والثناء على الله تعالى بعدها، وعنوان الرسالة، وانتهاء الكاتب من مقدمة رسالته ليفصل بينها وبين مضمونها، والخاتمة، وتذييل الرسالة، واستعمال الجمل الدعائية والاعتراضية، والألفاظ الغريبة مع جزالتها وترادفها، وروعة التصوير الفني في التعبير الكتابي، والإيجاز، أو الإسهابفي بعضها، مع أداء الغرض واستيفائه بأسلوب عربي فصيح سهل، والوضوح، والفصاحة، والاقتباس من القرآن الكريم، والتمثّل بالشعر العربي، وغير ذلك.وتتجلّى هذه القيمةالفنّيّة من خلال المحورين الآتيين:

المحور الأوّل: بناء الرسالة:

مُحَرَّمْ –افتتاح الرسائل بالبسملة:لقد كان افتتاح الرسائل السياسية في العصر الأمويّ بعبارة: "بسم الله الرحمن الرحيم" سمة فنّيّة ميّزت رسائل هذا الطور، وهو افتتاح فنّيّ لم نكد نجد له أثراً في مراسلات العصر الجاهليّ، إلا عبارة: "باسمك اللهم"[1]، التي كان الجاهليّون يفتتحون رسائلهم السياسية بها؛ وقد سار النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد البعثة على هذه الصيغة ردحا من الزمن، حتى نزل قوله تعالى: إنه من سليمان وإنه باسم الله الرحمن الرحيمَّ[2].فصارت سنة متبعة لافتتاح الرسائل السياسية التزمها الرسول صلى الله عليه وسلم في مكاتباته، وصار الصحابةرضي الله عنه يحذون حذوه في استعمالها، حتى جاء العصر الأموي، كما رأينا عند عرضنا لبعض الرسائل

التي تبادلت بين الأحزاب السياسية في هذا العصر. ويروي ابن عبد ربه أن الرسائل لم تزل تُفْتَتَح بعبارة "بسمك اللهم"، ثم نزلت سورة هود فيها:وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ﷻ[3].
فكُتِبَ: "بسم الله"، ثم نزلت سورة بني إسرائيل: قل ادعوا الله أو ادعو الرحمن أياما تدعو فله الأسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغي بين ذلك سبيلا ﷻ[4].

فكُتِبَتْ: "بسم الله الرحمن"، ثم نزلت سورة النمل: إنه من سليمان وإنه باسم الله الرحمن الرحيمً.فاستفتح بها رسول اللهﷺ وصارت سنة متبعة[5]. ونلاحظ أنه بعد افتتاح الرسالة بالبسملة قد يستعمل الكاتب _مثلا_ إحدى العبارات الآتية: "بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: ...". أو "من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى يزيد بن معاوية ...". أو "لعبد الله معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين من شريح بن هانئ ...". وهذه من السمات الفنية التي ميزت رسائل هذا الطور.

ﷺ

-عنوان الرسالة:

وهو في اللغة بمعنى: العلامة، ويقصد به هنا: ذكر اسم المرسِل واسم المرسَل إليه في مطلع الرسالة بعد البسملة من الداخل، كاستعمالهم صيغة: "من فلان إلى فلان"، وإن كانت الرسالة مما يُغلَق ويُختَم أثبت هذا العنوان أيضا من الخارج لِئلَّا تختلط الرسائل. ويشير أبو هلال العسكري إلى أن أوّل من كتب: (من فلان إلى فلان) هو قُسّ بن ساعدة الأيادي، وقد أقرّ النبي صلى الله عليه وسلم استعمال هذا الأسلوب في كتابة الرسائل[6]، وقد صار هذا الاستعمال شائعا في كتابة الرسائل لدى الأحزاب السياسية في العصر الأموي؛ وكان الوضع الطبيعي في صيغة العنوان أن يبدأ الكاتب أو المرسِل باسمه، ثم يُثَنّي بكتابة اسم المرسَل إليه؛ ويبدو أن استعمال لفظ (من فلان إلى فلان) كان هو التقليد الغالب في الجاهلية، لِأَنَّ (من) عادة تدلّ على ابتداء الغايات، و(إلى) تدلّ على انتهائها، ولِأَنَّ العرب لم يكونوا يأبهون لِأَيّ عظيم، ولا يعرفون أساليب التفخيم والتبجيل التي كانت عند الأمم الأخرى[7].

ومما يستحق الملاحظة هو أن الرسالة إذا كانت للخليفة قد يذكر صفة العبودية قبل اسمه، كأن يقول: من (عبد الله) هشام بن عبد الملك، أو يذكر بعد اسمه منصبه[8]، مثل: من عبد الملك بن مروان (أمير المؤمنين)، ثم يذكر اسم المرسَل إليه، أو صفته المعروفة لدى قومه.

ﷺ-ذكر التحميدات بعد البسملة: وهي ذكر حمد الله سبحانه وتعالى والثناء عليه بعد البسملة، وهذه سمة فنية مرتبطة بتوحيد الله تعالى[9]؛ ومثالها أن يقول الكاتب بعد ذكر البسملة وذكر عنوان الرسالة: "فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو"[10].

ﷺ-التخلّص:بعد أن انتهى الكاتب من المقدمة أو المدخل إلى رسالته، كان لابدّ من وسيلة للتخلّص منها إلى المضمون؛ وقد استعمل الكتّاب في العصر الأموي صيغة، وهي عبارة: "أما بعد" لِيُفصِل الكاتب بين مقدمة رسالته، وبين المضمون الذي هو غايته التي يرمي إليها؛ ويُروى أن أول من استعملها في كلامه هو قُسّ بن ساعدة[11]؛

و(بعد) في صيغة هذا الفصل ظرف منقطع عن الإضافة، وأصل الكلام: (أما بعدَ قولنا: بسم الله الرحمن الرحيم، فقد كان كذا وكذا)، وربما أضيفت (بعد) في بعض الرسائل فيقال: (أما بعد ذلك)، أو (أما بعد ذلكم). وقد اشترط استعمال (الفاء) بعد (أما بعد)، لِأَنَّ (أما) شرطية يقتضي دخول الفاء في جوابها، لأنها-أي الفاء-تصل بعض الكلام ببعض، وصلا لا انفصال بينه ولا مهلة فيه. ولما كانت (أما) فاصلة أُتِيَ بالفاء لتردّ الكلام على أوله[12].

ﷺ-موضوع الرسالة ومضمونها:

وعند استقرائنا للرسائل السياسية في العصر الأموي سنجد أن جميعها غير متساوٍ من حيث الموضوع، لأن حجم الرسالة كان متعلّقا بموضوعها، فهناك موضوعات وقضايا يمكن تناولها بكلمات محدودة، دون الإخلال بشيء منها، وفي الوقت نفسه نجد أن هنالك موضوعات كانت بحاجة إلى نفس طويل. ونجد نوعين من الرسائل: رسائل قصيرة، ورسائل مطوَّلة، فالرسائل القصيرة لا تتجاوز موضوعا واحدا في أغلب الأحيان، لكونها متضمّنة جملة من النقاط الأساسيّة والأفكار الرئيسيّة التي يتناولها ذلك الموضوع. وأما الرسائل المطوّلة فقد كانت موضوعاتها وأغراضها متعدّدة، وذلك حين نرى المترسّل ينتقل فيها من موضوع إلى آخر، حتى يلمّ في آخر المطاف بجملة من الموضوعات معا، وأحيانا تكون هذه الموضوعات على اتصال وطيد فيما بينها، حيث نجد المترسّل يخلط بين موضوع التهديد والوعيد، أو موضوع التحريض في الشؤون العسكريّة، أو تجد موضوع بيان الوضع الحربي مختلطا بموضوع الاستشارة أو استطلاع الرأي، أو التبشير بالنصر، أو الهزيمة، كالرسالة التي كتبها خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد إلى الخليفة عبد الملك بن مروان[13]، أو بيان الوعظ والأوامر في الظروف السياسيّة، كالرسالة التي كتبها معاوية بن أبي سفيانرضي الله عنه إلى ابنه يزيد حين بلغه بمفارقته اللذّات وانهماكه في الشهوات[14]؛ إلا أنه مهما تعدّدت موضوعات الرسالة فإنها في النهاية كانت تنطلق من منطلق واحد لتصل إلى هدف واحد.

وأما مضمونها فهو غرض الكاتب من الرسالة وغايته التي يسعى إليها، وهو لُبُّ الخطاب، ويصعب على المرء ضبط موضوعات هذا المضمون، لأَنها غنيّة غنىً عظيما، ومتنوّعة تنوّعا واسعا، لِأَنَّها تشمل كلَّ ما يمكن أن يقال أو يبلغ بدءا من أقصى العاطفة والشعور، وانتهاء بأقصى العقل والتفكير؛ غير أن هذه الموضوعات تتوزّع على مستويين من حيث طبيعتها:

المستوى الأول هو الموضوعات المتعلِّقة بشؤون الدولة والمجتمع، أو السياسة والإدارة.

والمستوى الثاني هو الموضوعات الشخصية الخاصة التي تُعَبِّر عن هموم أفراد المجتمع ومشاغلهم.

6-الختام:

الرسائل بعد الفراغ من المضمون بتعابير مختلفة، وكان أتمُّها صيغة السلام الختامية: (السلام عليك ورحمة الله وبركاته)، أو (والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)؛ إلا أنها قد تُخْتَصَر إلى: (والسلام عليك)، أو (والسلام)؛ وهذه الأخيرة هي الأغلب استعمالا، نظرا لاختصارها. وإذا كانت الرسائل مُوَجَّهَة إلى غير المسلم، أو إلى من كان مخالفا في العقيدة، كالرسائل التي نجدها لدى الخوارج، عندما أرادوا إرسالها إلى من خالفهم في العقيدة، كانوا يختمونها

بصيغة: (والسلام على من اتّبع الهدى)، وهذه أيضا من صِيَغ السلام التي تُذْكَر في التصدير، إلا أن هذه الصيغة كانت تحمل في معانيها دعاء بالسلامة غير مباشر، في حين أن الصيغة الأولى تحمل في معانيها عاطفة الرحمة والدعاء المخلص المباشر بالسلامة إلى المرْسَل إليه.

7-التذييل: وبعد خَتْم الرسائل بالتعابير التي ذكرناها، كانت تُذَيَّل عادة بأمرين مهمّين، وهما:

الأول التاريخ الذي كُتِبَت الرسالة فيه؛ لا بدّ من وضع تاريخ للرسائل، لِأَنَّهُ يساعد على تأكيد مدى صحة الأخبار التي تحملها الرسالة، وقرب عهدها أوبعدها. وتذكر المصادر القديمة في سبب وضع التاريخ عند العرب روايات شتى، أصحّها عندنا اثنتان: الأولى هي أن أبا موسى الأشعريّ كتب إلى عمر يقول: "إنه يأتينا من قِبَل أمير المؤمنين كتبٌ ليس لها تاريخ، فلا ندري على أيّها نعمل"[15]. والرواية الثانية هي أن عمر بن الخطابرضي الله عنه قرأ صكّا مَحَلُّهُ شهر شعبان، فتحيَّر فيه: أهو شعبان الماضي أم الآتي؟ فكان ذلك باعثه على التفكير في اتّخاذ تاريخ للمسلمين، لِأَنَّ اللَّبْسَ في تاريخ الرسائل والوثائق والمستندات يؤثّر في تنفيذ الأوامر والتعليمات الصادرة، ويوقع الشكّ في المتقدِّم منها والمتأخِّر، ويُعَطِّل الحقوق والأحكام؛ إذ إنّ "الكتاب بغير تاريخ نكرة بلا معرفة، غفل بغير سمة"[16]؛ وقد بلغ عمررضي الله عنه أن العجم تُؤَرّخُ، وكان ذلك في سنة ﷺ[17]، فجمع الصحابة واستشارهم في الأمر، فأشاروا عليه به، ولكنهم قد اختلفوا في مبدئه: فرأى بعضهم أن يُؤَرَّخَ بعام الفيل، وبعضهم بمولد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وبعضهم بيوم مبعثه، وبعضهم بوفاته، في حين ذهب بعض منهم إلى التاريخ بيوم هجرته إلى المدينة؛ ثم حسم علي بن أبي طالبرضي الله عنه هذه الآراء كلها، فقال: نُؤَرّخُ "من يوم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك أرض الشرك"، لِأَنَّ مهاجره صلى الله عليه وسلم قد فرّق بين الحق والباطل[18]، وكان أول ظهور الإسلام وقوته[19]؛ ثم إنهم بدأوا السنة الهجرية في أول شهر المحرّم، فكان عمر بذلك أول من أرّخ بالتاريخ الهجري في الإسلام، وأدخله في نطاق الرسائل والوثائق على اختلافها، وصار تذييل الرسائل بالتاريخ سنة متبعة في العصر الأموي.

والثاني اسم كاتب الرسالة، سواء أكان هو مُنشِئُها، أم كان مجرَّد مُدَوِّن لِمَا يُمْلى عليه. ولكتابة اسم كاتب الرسالة أهمية خاصة لكونها نوعا من التوثيق الذي يزيد الاطمئنان إلى صحتها؛ وذلك لِأَنَّه إذا عُرِفَ كاتبها عرف خطه، وإذا عُرِفَ الكاتب والخط قلَّ احتمال الوضع، لِأَنَّ الكاتب يَظَلُّ مسؤولا عن كتابته. وإذا كان ديوان الرسائل قد تأخر ظهوره في العصر الأموي، فإن اتخاذ الكتّاب لم يكن وليد هذا العصر؛ وتروي لنا المصادر القديمة بالإجماع أنّ أوّل من كتب في آخر كتابه عبارة "فلان بن فلان" هو أُبَيُّ بن كعب، وكان أول من كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمة المدينة، وبذلك تكون هذه الظاهرة في كتابة الرسائل خاصة، والوثائق المختلفة عامة، وهذا التقليد يرجع إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة، على أن الوثائق والمستندات كانت بحاجة إلى شهود يُدَوِّنُون أسماءهم في آخرها لضمان ما فيها من الحقوق، خلافا للرسائل، لِأَنَّها لم تكن بحاجة إلى ذلك، وقد نهج

سائر كُتّاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكُتّاب خلفائه الراشدين وعُمّالهم هذا النهج، وكذلك صار كتاب الرسائل السياسية في العصر الأموي على هذا الدرب في الأعمّ الأغلب.

ولا يلزم إثبات اسم صاحب الرسالة في آخرها، إلا إذا كان أُمّيّا لا يكتب، وفي هذه الحالة يقوم بإملائها على أحد كتابه، أو أنه ليس بذاك، ولكنه قد أمر كاتبه بأن يكتب له، وربما لانشغاله بأمور تمنعه عن القيام بهذه المهمة[20]. ومن هذا المنطلق يمكننا تقسيم ما بين أيدينا من الرسائل السياسية إلى ثلاث مجموعات من حيث كُتّابُها:

المجموعة الأولى: هي رسائل لا يُعْرَف كاتبها، إذا لم يذكر اسمه صراحة، وإنما نسبها إلى الخليفة أو إلى العامل، دون أن يوجد شيء يؤكد أنه كتبها بخط يده.

والمجموعة الثانية: هي رسائل ورد نص صريح يؤكد أنها كُتِبَتْ من قِبَل الخلفاء أو الولاة أو القواد بخط أيديهم، وقد يكون السبب في ذلك أنهم لا يريدون أن يعرف الكتّاب أسرارها، لِمَا تحمله من خطورة وأهمية بالغة.

والمجموعة الأخيرة هي رسائل كتبها كاتب من كتّاب الديوان، وذكر اسمه في أولها أو في آخرها، فعرفنا أنها من إنشائه وليس لغيره أدنى جهد أو فضل؛ وهذا القسم من الرسائل هو الأكثر، حيث يُكلِّف الخليفة أو الأمير أحد كتّابه ويأمره بالكتابة أو الإجابة[21]

المحور الثاني: الخصائص الأسلوبيّة:

بعد أن تقدم الحديث عن بناء الرسائل وشكلها العام، لا بد أن نستكمل الصورة عن الرسائل السياسية، بالوقوف عند خصائصها الأسلوبية، على النحو الآتي:

1-استخدام الجمل الدعائية والاعتراضية:كان كتّابُ الرسائل السياسية في العصر الأموي يُكْثِرُون من استخدام الجمل الدعائية والاعتراضية في رسائلهم، وتتوزّع ما بين شعر ونثر، وتتضمّن الاقتباس والتضمين، سواءٌ، أكان من القرآن الكريم، أم من غيره؛ وقد يكون نصّ الرسالة مسجوعا يحوي مُحسِّنات لفظية، خاصة الجِناس؛ ومن أمثلة ذلك رسالة الحجاج بن يوسف إلى قطري بن الفجاءة:

"سلامٌ عليك، أما بعد: فإنك مرقتَ من الدين مَرُوقَ السهم من الرمية، وقد علمت حيث تجرثْمْتَ، ذاك أنك عاصٍ لله ولِوُلاة أمره، غير أنك أعرابي جِلْفٌ أُمِّيٌّ تستطعم الكِسْرة، وتستشفى بالتمرة، والأمور عليك حسرة، خرجت لتنال شُعْبة، فلحق بك طغامٌ صَلوا بما صَلِيتَ به من العيش فهم يَهُزُّون الرماح ويستنشئون الرياح، على خوف وجَهدٍ من أمورهم، وما أصبحوا ينتظرون أعظم مما جهلوا معرفته، ثم أهلكهم الله بِنزْحتيْن، والسلام"[22].

فردّ عليه قطري بن الفجاءة: "سلام على الهداة من الولاة الذين يرعوْن حريم الله ويرهبون نِقمتَه، فالحمد لله على ما أظهر من دينه، وأظلع به أهل السفالة، وهدى به من الضلالة، ونصر به عند استخفافك بحقه، كتبتَ إليّ تذكر أني أعرابيّ جِلف أُمِّي أستطعم الكِسرة وأشتفي بالتمرة، ولَعَمري يا ابن أم الحجاج أنك لميّت في جُبَّتك مُطلَخِمٌ[23] في طريقتك، واهٍ في وثيقتك، لا تعرف الله، ولا تجزع في خطيئتك، يئستَ واستيأستَ من ربك، فالشيطان قرينك، لا تجاذبه وثاقك، ولا تنازعه خناقك، فالحمد لله الذي إن شاء أبرز لي صفحتك، وأوضح لي طلعتك، فوالذي نفس قطري بيده لَعرفت أن مقارعة الأبطال ليست كتصدير المقال، مع أني أرجو أن يدحض الله حجتك، وأن يُمْتِعَني بمهجتك"[24].

ولا يخفى علينا أن كلا الكاتبين يرمي صاحبه بالضلالة والغواية، وقد عُنِيا بالتأنق في أسلوبهما، ومن ثَمّ استطاع كلٌ منهما أن يُزَيّن رسالته بالسجع؛ مما يشير إلى براعتهما وفصاحتهما في الكلام.

ويمكن أن نشير إلى رسالة مسجوعة أخرى للمختار الثقفي التي أرسل بها إلى الأحنف بن قيس زعيم تميم: "بسم الله الرحمن الرحيم، من المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف بن قيس ومَنْ قِبَله، فسِلْمٌ أنتم، أما بعد: فويْلُ أمِّ ربيعة من مضر، فإن الأحنف موردٌ قومه سقر، حيث لا يستطيع لهم الصَّدر[25]، وإني لا أملك ما خُطَّ في القَدَر، وقد بلغني أنكم تسمُّونني كذّاباً، وإن كُذِّبَتْ فقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ من قبلي، ولستُ بخير من كثير منهم"[26]. وكان المختار يُعْنَى باختيار ألفاظه والسجع في كلامه، وفيها إيهاماته وادِّعاءاته، إذ يشير من طرف خفيّ إلى أنه يوحَى إليه[27].

2-استخدام الألفاظ الغريبة: وأحيانا نجد أن بعض كتّاب العصر الأموي يستخدم الألفاظ الغريبة في رسائله، مع روعة التصوير الفنّيّ، كالرسالة التي كتبها الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يصف فيها حال العراق، وقد هطل عليه

المطر بعد فترة جفاف وقحط[28]. وكانت الرسالة تدل على ما عُرف به الحجاج من الفصاحة في استخدام اللغة الجزلة الرصينة، واستعمال الغريب من الألفاظ، وروعة التصوير الفني، مع جودة الوصف، ودقة التعبير؛ والرسالة تبدو غريبة في بابها، لِأَنَّ الكاتب أكثر من استخدام الترادف والازدواج، الأمر الذي يدل على تجاوز مرحلة الإيجاز والإرهاص إلى مرحلة التفنّن في الإطناب. وقد وصف الدكتور شوقي هذه الرسالة بأنها "لوحة بديعة تصوّر الجدب ونزول الغيث بقلم شاعر يجمع أشتات الخيال"[29].

وقد تكون هذه الألفاظ الغريبة حوشيّةً؛ إلا أن هذا الاستعمال لم يكن متداولا في الزمن الأول ولا ما بعده، بل كان مرفوضا عند العرب، كما هو مرفوض عند غيرهم؛ ويسمى الوحشيُّ الغليظ المتَوَعِّر[30]. والغريب عندهم ثلاثة أصناف:

الأول: ما يُعاب استعماله في النظم والنثر، مثل كلمة "جَحيش" في بيت تأبَّط شرًّا.

الثاني: ما يُعاب استعماله في النثر دون النظم.

الثالث: ما يُعاب استعماله بصيغة دون صيغة، ومن ذلك: استعمال صيغة "دَعْ" و "يَدَعُ" دون استعمال ماضيها "وَدَعَ"، أو "ذَرْ" و "يَذَرُ" دون استعمال ماضيها "وَذَرَ"[31].

3-الميل إلى الإيجاز: تتميز رسائل هذا الطور بالميل إلى الإيجاز الذي يتضمّن جملة من النقاط الأساسية والأفكار الرئيسيّة في أغلب الأحيان، مع أداء الغرض واستيفائه بأسلوب سهل فصيح؛ وهذه السمة الفنية منتشرة لدى كثير من الكتّاب في هذا العصر، ويمكن أن نجد ذلك في الرسائل التي رواها الجاحظ في كتابه، والتي جرت بين الحسن بن علي بن أبي طالب، وزياد بن أبي سفيان ومعاوية بن أبي سفيانرضي الله عنه. فقد أخذ الحسن الأمان لِأَصحابه من معاوية عندما تنازل له عن الخلافة، فطلب زياد رجلا كان في الأمان الذي أخذه الحسن، فكتب الحسن:

"من الحسن بن علي إلى زياد، أما بعد: فقد علمتَ ما كنا أخذنا لِأَصحابنا، وقد ذكر لي فلان أنك عرضت له، فأحبّ ألا تعرض له إلا بخير".

فلما وصلت الرسالة إلى زياد، وأدرك أن الحسن لم يَنسِبْه إلى أبيه، غضب، ثم أرسل إليه رسالة: "من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن، أما بعد: أتاني كتابك في فاسق يؤويه الفُسّاق من شيعتك وشيعة أبيك، وأَيْمُ اللهِ لَأَطْلُبَنَّهم ولو بين جلدك ولحمك، وإن أحبَّ لحم إليّ آكله لِلَحم أنت فيه".

وحين وصلت الرسالة إلى الحسن، وجّهها إلى معاوية، فلما قرأها، غضب، وكتب إلى زياد:

"من معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان، أما بعد: فإن لك رأيين: رأيا من أبي سفيان، ورأيا من سمية، فأما رأيك من أبي سفيان: فحِلْمٌ وحَزْمٌ، وأما رأيك من سمية: فكما يكون رأي مثلها. وقد كتب إلى الحسن بن علي أنك عرضتَ لصاحبه، فلا تعرض له، فإني لم أجعل لك إليه سبيلا، وإن الحسن بن علي ممن لا يُرْمى به الرجوان[32]، والعجب من كتابك إليه: لا تَنسِبه إلى أبيه، أفإلى أمه وكلته، وهو ابن فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ، فالآن حين اخترت له، والسلام"[33].

ومن الجليّ أن هذه الرسائل الثلاثة كانت تسير وَفْقَ نظام الكتابة في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم؛ وهو نظام يقوم على الإيجاز في التعبير يبلغ القصد، ويؤدي الغرض، مع سهولة وفصاحة في الأسلوب، في غالبية الرسائل؛ وحين ننظر في رسالة زياد بن أبي سفيان نرى كيف استطاع أن يحسن صياغته في هذه الرسالة، وخاصة عندما استخدم التهديد والوعيد في عبارتي: "لَأَطْلُبَنَّهم ولو بين جلدك ولحمك، وإن أحبّ لحم إليّ آكله للحم أنت فيه". وهذه السّمة الفنّيّة البديعيّة في هذه الصياغة تدل على الملكة اللغوية الفائقة التي يمتلكها زياد بن سفيان في قدراته التعبيرية.

وهناك رسالة أخرى ليزيد بن المهلب كتبها بقلم يحيى بن يعمر العَدْواني إلى الحجاج بن يوسف، يصف له نتائج إحدى المعارك التي خاضها، ويخبره فيها بالفتح والانتصارات التي حظي بها: "إنا لقينا العدوَّ، فمنحنا الله أكتافهم، فقتلنا طائفة، وأسرْنا طائفة، ولحقت طائفةٌ برؤوس الجبال، وعرائر الأودية[34]، وأهضام الغيطان، وبتنا بعُرْعُرَة الجبل، وبات العدوّ بحضيضه"[35].

والرسالة كما نرى تميل إلى الإيجاز، وعذوبة البيان، مع استيفاء الغرض المنشود بأوجز وجه من وجوه الكلام؛ إلا أن صاحبها قد لجأ فيها إلى استخدام الألفاظ الغريبة، حتى اندهش الحجاج حينما سمعها[36]. وواضح أن ذوق يحيى بن يعمر اللغوي أدّاه إلى أن يسوق رسالته في هذه الألفاظ الغريبة، وشجّعه على ذلك أنه كان يعرف ذوق الحجاج واستحسانه لِأَوابد الألفاظ. وفعلا راعت الرسالةُ الحجاجَ، فقد روى الروّاة أنه حين قرأها قال: "ما يزيد بأبي عُذْرَة هذا الكلام". فقيل له: إن معه يحيى بن يعمر، فكتب إلى يزيد أن يُشْخِصَهُ إليه، فلما أتاه سأله عن مولده، فقال له: الأهواز، فسأله: أنَّى لك هذه الفصاحة؟ قال: أخذتها عن أبي[37]. وكان الحجاج إذا أعجبه كاتبٌ وملأ نفسه ربما أرسل به إلى عبد الملك بن مروان ليسلكه بين كُتّابه، على نحو ما صنع بمحمد بن يزيد الأنصار[38].

وإذا كانت رسالة يزيد بن المهلب تمثّل في إيجاز شديد أخبارَ معركة دارت رحاها داخل أرض الخلافة الأموية، فإن الرسالتين السابقتين أكثر طرافة وأمتع إنشاء وأعنف أداء وأقسى ألفاظا؛ فقد جرى تبادلهما في نطاق الإطار السياسي العام بين رجلين من أشدّ رجال العصر شكيمة وأكثرهم حبا للدماء، أحدهما يمثّل السياسة الأموية وهو الحجاج بن يوسف، والثاني يمثّل التمرّد على ملك الأمويين ويدعو إلى الجمهورية الإسلامية بعد أن أقام لنفسه خلافة تسانده طائفة من الخوارج، هو قطري بن الفجاءة، والمعارك بين الأمويين والخوارج قد دارت رحاها لفترات قصرت حينا، وطالت أحيانا على ما مرّ بنا من آنفًا[39].

ونختم حديثنا في هذا الصدد بإيراد الرسالتين اللتين جرتا بين عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد بن العاص الذي خرج عليه؛ ولما خرج عبد الملك سنة رَمَضَانَ ٦٥هـ لقتال زُفَر بن الحارث الكِلابي بقرقيسياء، غلب عمرو بن سعيد على دمشق، ودعا الناسَ إلى بيعته، وحين سمع عبد الملك بخروجه عليه كتب إليه هذه الرسالة: "أما بعد: فإن رحمتي لك تَصْرِفُني عن الغضب عليك، لِتَمكُّنِ الخذْع منك، وخذلان التوفيق إياك، نهضْتَ بأسبابٍ وهَّمْتك أطماعك، أن تستفيد بها عزّاً، وكنتَ جديرا _لو اعتدلتَ_ أن تدفع بها ذُلّا، ومن رحل عنه حسنُ النظر،

واستوْطنتْه الأماني، ملك الحيْنُ تصريفَه، واستترت عنه عواقبُ أمره، وعن قليلٍ يتبيّن من سلك سبيلَك، ونهض بمثل أسبابك، أنه أسير غفلة، وصريع خدعٍ، ومغيض ندم، والرحم تحمل على الصفح عنك، ما لم تَحْلُلْ بك عواقب جهلك، وتزْجُرُ عن الإيقاع بك، وأنت إن ارتدعْتَ كنتَ في كَنَفٍ وسِتْرٍ، والسلام". وقال المسعودي: وكان كتب إليه عبد الملك: "إنك لَتُطْمِعُ نفسَك بالخلافة، ولستَ لها بأهل".

فردّ عليه عمرو: "استدراج النِّعَم إياك أفادك البغْيَ، ورائحةُ القُدرة أَوْرَثَتْكَ الغفلةَ، زجرتَ عما وافقتَ عليه، وندبْتَ إلى ما تركتَ سبيله، ولو كان ضعف الأسباب يؤيِسُ الطلاب، ما انتقل سلطانٌ ولا ذلّ عزيزٌ، وعن قريب تتبيّن: من أسير الغفلة، وصريع الخدع، والرحم تعطف على الإبقاء عليك مع دفعك عما غيرُك أَقْوَمُ به منك، والسلام"[40].

كلتا الرسالتين على قصر كل واحدة، تصور لنا البراعة البيانية التي يمتلكها كلا الكاتبين، ونجد كذلك أن كل واحدة كانت تقوم على التعبير الموجز المركز، وأداء الغرض، مع طلاوة اللفظ وحسن الديباجة، والجمال الفني؛ وخاصة عندما نلاحظ عبد الملك بن مروان يستخدم في رسالته الصفح والترغيب، والزجر والتسامح. ثم يردّ عليه عمرو بن سعيد بن العاص برسالة موجزة بليغة، لا تقلّ عن قدر رسالة عبد الملك في اختيار اللفظ، وجودة المعنى.

وليس يخفى أن الكتّاب كانوا يستحبون القصر من الرسائل، وخاصة الديوانية منها، فلغتها عربية خالصة، تامّة المعنى، وكان أول من أطال فيها كاتب لعبيد الله بن زياد يسمى عمرو بن نافع[41].

ربيعًا–الإسهاب والتطويل:

الإطناب والتطويل سمة من سمات حزب الخوارج في كتابة الرسائل، ويندر أن تجد ذلك لدى بقيّة الأحزاب السياسيّة في العصر الأمويّ، وكثيرا ما كانت الرسائل الطويلة تتناول موضوعات كثيرة لتعالج مسائل عديدة، عكس الرسائل القصيرة الموجزة التي تتضمّن النقاط الأساسيّة والأفكار الرئيسيّة، وربما يكون ذلك نتيجة للشرح والوصف، وتفصيل الجزئيات، والتقسيم، والمقارنات، والموازنات[42].

جماليًا–الوضوح:

ومما تميزت به رسائل هذا الطور الوضوح، الذي كان عبارة عن استعمال التعبير الكلامي على مقتضى النظامين النحوي والصرفي، مع خلوّه من التعقيد والتنافر، أو التقديم والتأخير، أو الحذف، أو الغموض الذي كان سببه استعمال الألفاظ الغريبة؛ وقد كانت هذه الخاصية شائعة لدى كثير من كتّاب الرسائل السياسية في العصر الأمويّ في أعمّ الأغلب، إلا أنه قد نجد الألفاظ الغريبة في الرسالة، وذلك لطبيعة الموضوع وعلاقته بالبيئة، وفي الوقت نفسه نجدها واضحة تمام الوضوح، لأن مقصد الكاتب هو الإفهام والإبلاغ لدى من يكتب إليهم رسالته.

جمادان–الفصاحة:

ومعناها أن يخلص الكلام من ضعف التأليف، وتنافر الحروف، والتعقيد، والغرابة، ومخالفة القياس الصرفي، مع مراعاة مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وقد كانت رسائل هذه الفترة تصدر العرب الفصحاء، كعبد الحميد الكاتب، لأنهم نشؤا في البيئة العربية التي لم تشبها شائبة من العجمة، فكانت الفصاحة لديهم ملكة وطبعا.

رجب–الاقتباس من القرآن الكريم:

ومن يتصفّح لرسائل هذا العصر يجد أن بعض الكتاب يضمّنون رسائلهم آيات قرآنيّة، وخاصة الآيات التي تتحدّث حول الوعد والوعيد، وكثيرا ما نجد ذلك لدى الخوارج، الأمر الذي يدلّ على مدى تشرّب الكتّاب آيات قرآنيّة وتأثّرهم بها؛ لأن القرآن يعدّ حجّة دامغة في حسم الخلاف بالدليل القاطع الذي لا مجال لأيّ معترض أن يعترضه.

وقد حرص كتّاب هذا الطور على تزين رسائلهم السياسية بالآيات القرآنيّة، واقتباسهم منها، ما يضفي عليها سمات الرفعة والجزالة والرونق، كي يعينهم ذلك على توصيل أفكارهم، ودعمها بالحجج القرآنية. والاقتباس من القرآن يختلف من كاتب إلى آخر، ومن الكتّاب من يقتبس من القرآن عن طريق محاكاة أسلوبه، واستعارة عباراته وألفاظه، وهذا شائع لدى كثير من كتّاب هذا الطور، لأن ذلك يشير إلى تأثّر الكاتب بأسلوب القرآن وإعجابه به، ومنهم من يقتبس آية أو أكثر، ويضمّنها رسالته، تأييدا لما يذهب إليه، وانتصارا لآرائه، وهذا النوع هو الأكثر انتشارا، ومنهم من يفتتحها بالقرآن، ثم يأتي كلامه معقّبا ومفسّرا، أو يكون الشطر الأوّل من القرآن، والشطر الثاني من كلام صاحب الرسالة، ومنهم من يضمن رسالته جزءا من الآية بأسلوب لا يشعر بأنه آية قرآنيّة، حتى ليظن أنه من كلامه، لأنه استخدم جزء آية أو أكثر دون أن يذكر قرينة تدلّ على أن ذلك اقتباس من القرآن الكريم، الأمر الذي يصعب على من ليس أهلا بالقرآن أن يميّز بين كلام الله تعالى من غيره[43].

شعبان–التمثّل بالشعر:

ومن يتأمّل رسائل هذه الفترة سيجد شيئا من الشعر لبعض الكتّاب، تأييدا ودعما لأغراضهم السياسيّة والاجتماعيّة، حيث يوردونها في مستهلّ الرسالة، أو في وسطها، أو في آخرها؛ وقد يكتفي الكاتب بإيراد بيت واحد أو أكثر، أو يغلب الشعر عليها، فيكون استخدامه للنثر أقلّ من الشعر فيها. والاستشهاد بالشعر في كتابة الرسائل ظاهرة قديمة عرفت منذ أقدم العصور، إذ إن بعض هذه الرسائل تُزيّن وتُعطّر بالأشعار العربيّة، لكون الشعر أداة تتميّز بإثارة المشاعر، وتأجيج العواطف. وقد اتخذ الكتّاب هذه الوسيلة للإقناع والتأثير لمن يراسلونهم، وساروا على هذا المنوال حتّى في العصر الأمويّ؛ وأفضل الدليل على ذلك رسالة معاوية بن أبي سفيانرضي الله عنه التي أرسلها ردّا لرسالة عليّ بن أبي طالبرضي الله عنه، حين بويع له بالخلافة:

"من معاوية إلى عليّ، أما بعد: فإنه

ليس بيني وبين قيس عتابُ غيرُ طعن الكُلى وضربُ الرّقاب[44]

والحق أن هذه الفترة كانت حافلة بكثير من الرسائل السياسية النثرية المكسوة بالأساليب البلاغية الأدبية الراقية، التي ترينا على أنها ما زالت على النهج المعهود نفسه في عصر صدر الإسلام في أسلوب الكتابة؛ وهي رسائل فيها كثير من الألفاظ الإسلامية المصورة لمبادئ الدين الإسلامي الحنيف، التي تُعَبِّر عن الفكرة والموقف بألفاظ عربية أدبية فصيحة قُصِدَ منها الإفهام والإبلاغ.

أهمّ نتائج البحث:

1. إنّ مما يميّز الرسائل السياسية في هذا العصر هو استفتاح الكتاب بالبسملة، وذكر التحميدات والثناء على الله تعالى بعدها، وذكر عنوانها، كأن يذكر الكاتب اسم المرسِل واسم المرسَل إليه في مطلع الرسالة بعد البسملة من الداخل، وانتهاء الكاتب من مقدمة رسالته ليفصل بينها وبين مضمونها، وذكر خاتمة الرسالة، وتذييلها،
2. الميل إلى الإيجاز في الكتابة في أغلب الأحيان، مع أداء الغرض المنشود واستيفائه بأسلوب عربي فصيح جذّاب. أما الإطناب فهو سمة من سمات رسائل الخوارج، وقلّما تجد ذلك عن بقيّة الأحزاب السياسيّة في هذا العصر.
3. وتتسم رسائل العصر الأمويّ بالوضوح، إلا أنه مع ذلك قد يستعمل الكاتب الألفاظ الغريبة في رسالته، وذلك لطبيعة الموضوع وعلاقته بالبيئة.
4. استخدام الألفاظ الغريبة والمترادفات، وروعة التصوير الفني في التعبير الكتابي،وقد كانت رسائل هذه الفترة فصيحة، لأن كُتّابها كانوا يتّصفون بالفصاحة، كعبد الحميد الكاتب، وأبو العلاء سالم بن عبد الله، وعبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب، وغيرهم؛ وقد نشأ هؤلاء في البيئة العربية التي لم تشبها شائبة من العجمة، فكانت الفصاحة لديهم ملكة وطبعا.
5. استعمال الكتّاب الجمل الدعائية والاعتراضية في رسائلهم، وتتوزّع هذه الجمل ما بين شعر ونثر، وتتضمّن الاقتباس والتضمين، سواءٌ، أكان من القرآن الكريم، أم من غيره؛ومن مميزات رسائل هذا العصر الاستشهاد بالآيات القرآنيّة، وكثيرا ما نجد ذلك لدى الخوارج، الأمر الذي يدلّ على مدى تشرّب الكتّاب آيات قرآنيّة وتأثّرهم بها. وقد التزم بعض الكتّاب في هذه الفترة على تزيين رسائلهم السياسية بالآيات القرآنيّة، واقتباسهم منها، ما يضفي عليها سمات الرفعة والجزالة والرونق، كي يعينهم ذلك على توصيل أفكارهم، ودعمها بالحجج القرآنية؛ لأن ذلك يشير إلى تأثّرهم بأسلوب القرآن وإعجابهم به، كما هو الحال في الملحق رقم (ﷺ). وإن بعض هذه الرسائل كانت تُزيّن وتُعطّر بالأشعار العربيّة، لكون الشعر أداة تتميّز بإثارة المشاعر، وتأجيج العواطف.

الملاحق:

ملحق رقم: مُحَرَّمٌ

"أما بعد: فإني أُخبر أمير المؤمنين _أكرمه الله_ أني بعثت عبد العزيز بن عبد الله في طلب الخوارج، وأنهم لَقُوه بفارس، فاقتتلوا قتالا شديدا، فانهزم عبد العزيز لما انهزم عنه الناس، وقُتِل مقاتل بن مِسمَع، وقَدِم الفلُّ إلى الأهواز، فأحببتُ أن أُعلِمَ أمير المؤمنين ذلك ليأتيني رأيه وأمره أنزل عنده إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله". فردَّ عليه عبد الملك برسالة: "أما بعد: فقد قدِم رسولك في كتابك، تُعلِمُني فيه بعثَك أخاك على قتال الخوارج، وهزيمة مَن هُزِم، وقَتل مَن قُتِل، وسألتُ رسولك عن مكان المهلَّب، فحدَّثَني أنه عامل لك على الأهواز، فقبح الله رأيك! حين تبعث أخاك أعرابيّاً من أهل مكة على القتال، وتدع المهلب إلى جنبك يَجبي الخوارج، وهو الميمون النَّقيبة[45]، الحَسَن السياسة، البصيرُ بالحرب، المقاسي لها، ابنها وابن أبنائها، انظر أن تنهض بالناس، حتى تستقبلهم بالأهواز ومن وراء الأهواز، وقد بعثتُ إلى بشر أن يُمِدَّك بجيش من أهل الكوفة، فإذا أنت لقيت عدوَّك فلا تعمل فيه برأي، حتى تُحضِرَهُ المهلبَ وتستشيره فيه إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله". فشقَّ عليه أن فيَّل[46]رأيه في بعثة أخيه وترك المهلب، وفي أنه لم يرض رأيه خالصا حتى قال: أحضره المهلب، واستشره فيه[47].

ملحق رقم: صَفَرٌ

"من معاوية بن أبي سفيان إلى يزيد بن معاوية، أما بعد: فقد أدَّت ألسنة التصريح إلى أذن العناية بك ما فجع الأمَلَ فيك، وباعَدَ الرجاء منك، إذ ملأتَ العيون بهجة، والقلوب هيبة، وترامت إليك آمال الراغبين، وهمم المتنافسين، وشجَّت بك فِتيان قريش، وكهول أهلك، فما يسوغ لهم ذكرك إلا على الجِرَّة المهَوِّعة، والكَظِّ الجَشِء، اقتحمتَ البواثق، وانقدتَ المعاير، واعتضتها من سموِّ الفضل، ورفيع القدر، فليتك (يزيد) إذ كنتَ لم تكن، وسرَرتَ يافعا ناشئا، وأثكلتَ كهلا ضالعا، فواحَزَناه عليك (يزيد)! ويا حرَّ صدر المشكَل بك، ما أشمت فتيان بني هاشم! وأذلَّ فتيان بني عبد شمس عند تفاوض المفاخر ودراسة المناقب! فمن لصلاح ما أفسدت، ورتق ما فتقتَ؟ هيهات! خَمَشَت الدُّربة وجهَ التصبّر بك، وأبت الجِنايةُ إلا تحدُّراً على الألسن، وحلاوةً على المناطق، ما أربَحَ فائدة نالوها، وفرصة انتهزوها! انتبه (يزيد) للفظة[48]، وشاور الفكرة، ولا تكن إلى سمعك أسرع من معناها إلى عقلك، واعلم أن الذي وطَّأك وسوسة الشيطان، وزخرفة السلطان، مما حَسُنَ عندك قُبحُه، واحلولى عندك مُرُّه، أمرٌ شرِكك فيه السوادُ ونافسكه الأعبُدُ، لا لأثرة تدَّعيها أوجبتها لك الإمرة، وأضعتَ بها من قدرك، فأمكنتَ بها من نفسك، فكأنك شانئ نفسك، فمن لهذا كلِّه؟ اعلم يا يزيد أنك طريد الموت وأسير الحياة، بلغني أنك اتخذتَ المصانع والمجالس للملاهي والمزامير، كما قال الله تعالى: أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون [49].وأجهرتَ الفاحشة حتى اتخذت سريرتها عندك جهرا. اعلم (يا يزيد) أن أول ما سلبكه الشكرُ معرفةُ مواطن الشكر لله على نعمه المتظاهرة، وآلائه المتواترة، وهي الجَرحة العظمى، والفَجعة الكبرى: ترك الصلوات المفروضات في أوقاتها، وهي من أعظم ما يحدث من آفاتها، ثم استحسان العيوب، وركوب الذنوب، وإظهار العورة، وإباحة السر، فلا تأمَنُ

نفسك على سرك، ولا تعقِدِ على فعلك، فما خيرُ لذَّةٍ تُعقِبُ الندم، وتعقّي الكرم. وقد توقّف أمير المؤمنين بين شطرين من أمرك، لِما يتوقَّعه من غلبة الآفة، واستهلاك الشهوة، فكن الحاكم على نفسك، واجعل المحكوم عليه ذهنك، تَرشَدُ إن شاء الله تعالى. وليبلُغ أمير المؤمنين ما يرُدُّ شارداً من نومه، فقد أصبح نُصب الاعتزال من كل مؤانس، ودريئة الألسن الشامتة، وفَّقك الله فأحسن"[50].

ملحق رقم ربيع الأول

"بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله يزيد بن معاوية أمير المؤمنين من مسلم بن عقبة، سلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو[51]، أما بعد: تولى الله حفظ أمير المؤمنين والكفاية له، فإني أُخبر أمير المؤمنين–أبقاه الله–أني خرجت من دمشق، ونحن على التعبئة التي رأى أمير المؤمنين يوم فراقنا بوادي القُرَى[52]فرجع معنا مروان بن الحكم، وكان لنا عونا على عدونا، وأنَّا انتهينا إلى المدينة، فإذا أهلها قد خندقوا عليها بالخنادق، وأقاموا على أنقابها الرجالَ بالسلاح، وأدخلوا ماشيتهم، وما يحتاجون لحصارهم سنةً فيما يقولون، وأنَّا أعذرنا إليهم وأخبرناهم بعهد أمير المؤمنين، وما بذل لهم فأبَوا، ففرَّقتَ أصحابي على أفواه الخنادق، فولَّيتُ الحُصَين بن نمير ناحيةَ ذِناب، وما والاها عليها الوالي، ووجَّهتُ جُبَيش بن دَلَجَة إلى ناحية بني سلمة، ووجَّهتُ عبد الله بن مَسعَدة إلى ناحية بَقيع الغَرقَد، وكنتُ ومن معي من قُوَّاد أمير المؤمنين ورجاله في وجوه بني حارثة، فأدخلنا الخيل عليهم حين ارتفع النهار من ناحية عبد الأشهل، بطريق فتحه لنا رجلٌ منهم، مما دعاه إليه مروانُ بن الحكم إلى صنيع أمير المؤمنين، وقد تضمن له عنه من قُرب المكان، وجزيل العطاء، وإيجاب الحق، وقضاء الذِّمام، وقد بعث به أميرُ المؤمنين، وأرجو من الله عزَّ وجلَّ أن يُلهِمَ خليفته وعبده عِرفان ما أولى من الصُّنع، وأسدى من الفضل، وكان _أكرم الله أمير المؤمنين_ من محمود مقام مروان بن الحكم، وجميل مَشهَده، وشديد بأسه، وعظيم نِكايته لعدو أمير المؤمنين، مالا إخالُ ذلك ضائعا عند إمام المسلمين، وخليفة رب العالمين، إن شاء الله. وسلَّم الله رجال أمير المؤمنين، فلم يُصَب أحد منهم بمكروه، ولم يُقِم لهم عدوُّهم ساعةً من ساعات نهارهم، فما صلَّيتُ الظهر _أصلح الله أمير المؤمنين_ إلا في مسجدهم بعد القتل الذريع، والانتهاب العظيم، وأوقعنا بهم السيوفَ، وقتلنا من أشرَف لنا منهم، واتبعنا مُدبِرَهم، وأجهزنا على جريحهم، وانتهبناها ثلاثا كما قال أمير المؤمنين _أعزَّ الله نصره_ وجعلتُ دُورَ بني الشهيد المظلوم عثمان بن عفان في حِرز وأمان، فالحمد الله الذي شفى صدري من قتل أهل الخلاف القديم، والنفاق العظيم، فطالما عتوا، وقديما ما طغوا، وكتبتُ إلى أمير المؤمنين، وأنا في منزل سعيد بن العاص مُدنَفا مريضا، ما أُراني إلا لِما بي، فما كنتُ أُبالي متى مِتُّ بعد يومي هذا"[53].

ملحق رقم: ربيع الثاني

أما بعد: فإنا نُخْبِرُ أمير المؤمنين أنه لم يُصِبْ أرضنا وابلٌ منذ كتبتُ أُخبره عن سقيا الله إيانا إلا ما بلَّ وجه الأرض من الطَّشِّ والرَّشِّ والرَّذاذ، حتى دقعت الأرض واقشعرّت وأغبرت[54]، وثارت في نواحيها

أعاصير تذرو دقاق الأرض من ترابها، وأمسك الفلاحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها وامتناعها، وأرضنا أرض سريع تغيُّرها، وشيك تنكُّرُها ، سيء ظن أهلها عند قحوط المطر حتى أرسل الله بالقبول يوم الجمعة، فأثارت زِبْرِجاً مُتَقطِّعاً مُتَمَصِّراً الشمال يوم السبت فطحطحت عنه جهامة[55]، وألَّفَتْ مُتقطِّعة، وجمعت مُتَمَصِّرة، حتى انتضد فاستوى، وطما وطحا، وكان جَوْناً مُرْثَعَناً، قريباً رواعِدُهُ، واعتدَتْ عوائدُهُ بسوابلٍ مُنْهَمِلٍ مُنسَجِلٍ، يَرْدِفُ بعضه بعضا، كلما أردف شُؤْبَوْبٌ أردفته شآبيب، لشدة وقعة في العراض، وكتبتُ إلى أمير المؤمنين وهي ترمي بمثل قطع القطن قد ملأ اليباب وسدَّ الشِّعاب[56]، وسقى منها كلَّ ساقٍ، فالحمد لله الذي أنزل غيثه، ونشر رحمته من بعد ما قنطوا، وهو الوليّ الحميد، والسلام"[57]

ملحق رقم5

"بسم الله الرحمن الرحيم، من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة، أما بعد: فإن معاوية كان عبدا من عباد الله، أكرمه الله واستخلفه وخوَّله ومكّن له، فعاش بقدر، ومات بأجل، فرحمه الله، فقد عاش محمودا، ومات برّاً تقيّاً، والسلام".[58]

المصادر والمراجع

ابتسام مرهون الصفار. **الأمالي في الأدب الإسلاميّ**. (2005م). (د. ط). عمان: دار المنهج للنّشر والتّوزيع.

ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي. (1999م).**العقد الفريد**. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. (2001م).**الإمامة والسياسة**.ط1 بيروت: دار الكتب العلمية.

الجاحظ أبو عثمان بن بحر بن محبوب. (1968م).**البيان والتبيين**. ط5. القاهرة: مكتبة الخانجى للطباعة والنشر والتوزيع.

الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس. (1980م).**كتاب الوزراء والكتّاب**. ط2. مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

حسين بيوض. (1996م). **الرسائل السياسيّة في العصر العبّاسيّ الأوّل**. (د. ط). دمشق: منشورات وزارة الثقافة.

شوقي ضيف. (2003م). **الفنّ ومذاهبه في النثر العربيّ**. ط13. القاهرة: دار المعارف.

شوقي ضيف. (2008م). **تاريخ الأدب العربيّ (العصر الإسلاميّ)**. ط25. القاهرة: دار المعارف.

الطبريّ، أبو جعفر محمّد بن جرير. (1968م). **تاريخ الرسل والملوك**. (د. ط). القاهرة: دار المعارف.

القلقشنديّ، أبو العبّاس أحمد بن عليّ. (2010م). **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**. (د. ط). بيروت: دار الكتب العلميّة.

المبرِّد، أبو العبّاس محمّد بن يزيد. (1999م). **الكامل في اللغة والأدب**. تحقيق يحيى مراد. ط1. مؤسّسة المعارف للطّباعة والنشر.

محمّد عثمان عليّ. (1994م). **في أدب الإسلام عصر النبوّة والرّاشدين وبني أميّة**. ط3. طرابلس الغرب: منشورات كلّيّة الدّعوة الإسلاميّة.

محمود المقداد. (1993م). **تاريخ الترسّل النثريّ عند العرب في صدر الإسلام**. ط1. بيروت: دار الفكر المعاصر.

مصطفى الشكعة. (1993م). **الأدب في موكب الحضارة الإسلاميّة**. ط1. الدّار المصريّة اللبنانيّة.

---

[1] محمود المقداد، **تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام**، (بيروت: دار الفكر المعاصر، 1993م)، ص217.

[2] النمل: ٣٠.

[3] هود: ٤١.

[4] الإسراء: ١١٠.

[5] ينظر: ابن عبد ربه، **العقد الفريد**،(ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 1999م) ج4، ص144.

[6] ينظر: محمود المقداد، **تاريخ الترسّل النثري عند العرب في صدر الإسلام**، ص221.

[7] ينظر: المصدر السابق، والصفحة نفسها.

[8] ومثال ذلك: رسالة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان إلى الوليد بن عتبةفي ملحق رقم5.

[9] ينظر: ابتسام مرهون الصفار، **الأمالي في الأدب الإسلامي**، (عمان: دار المنهج للنشر والتوزيع، 2005م)، ص293.

[10] ومثال ذلك رسالة مسلم بن عقبة إلى يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ونصها في ملحق رقم: 3.

[11] ينظر: الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**،(د. ط. القاهرة: دار المعارف، 1968م)،ج6، ص179.

[12] ينظر: محمود المقداد، **تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام**، ص226، 227.

[13] ونص هذه الرسالة موجود في ملحق رقم: (1).

[14] نص الرسالة في ملحق رقم (2).

[15]: الجهشياري، **الوزراء والكُتَّاب**،ط2. مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1980م)، ص20. ويُنظر:القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**،(د. ط، بيروت: دار الكتب العلميّة، 2010م) ج6، ص240.

[16] الصولي، **أدب الكُتَّاب**، ص184.

[17] ويروي الجهشياري أنه كان في سنة 17هـ، أو 18هـ. ينظر: الجهشياري، الوزراء والكتّاب، ص20. وبعضهم أرجعه إلى زمن النبيﷺ بُعَيْد الهجرة. ينظر: القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ج6، ص140.

[18] ينظر: الجهشياري، **الوزراء والكتّاب**، ص20.

[19] ينظر: القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ج6، ص241.

[20] ينظر: محمود المقداد، **تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام**، ص79، 80.

[21] ينظر: حسين بيوض، **الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول**، (د. ط، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 1996م) ص41.

[22] يشير الحجاج إلى هزيمتين هزمهما الأزارقة أمام المهلب بن أبي صفرة. ينظر: شوقي ضيف، **تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)**، (ط25. القاهرة: دار المعارف، 2008م)،ص457.

[23] أي المتجبّر المتكبّر.

[24] الجاحظ، **البيان والتبيين**، (ط5. القاهرة: مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، 1968م)ج2، ص165.

[25] يقولون: ويل أم فلان، إذا أرادوا التعجب منه. والسقر: جهنم. والصدر: الرجوع.

[26] الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ج7، ص131. وابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج2، ص265.

[27] ينظر: شوقي ضيف، **تاريخ الأدب العربي(العصر الإسلامي)**، ص459.

[28] يُنظر نصّ هذه الرسالة في ملحق رقم: 3

[29] شوقي ضيف، **الفنّ ومذاهبه في النثر العربيّ**، (ط13. القاهرة: دار المعارف، 2003م) ص109.

[30] ينظر: القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ج2، ص223.

[31]ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ج1، ص165.والقلقشندي،**صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ج2، ص223.

[32] أي لا يُرْمَى به الخوف والتهديد.

[33] الجاحظ، **البيان التبيين**، ج2، ص361.

[34] عرائر الأودية: أسافلها. وفي رواية للمبرّد: "وعراعر الأودية"، وعراعر: جمع عُرْعُرَة بضم العينين، وعرعرة كل شيء: أعلاه. والأهضام: جمع هضم بالفتح، وقد يكسر، ومعناه: المداخل. والغِيطان: الأراضي المستوية. وعُرْعُرَة الجبل: قِمَّته. والحضيض: القرار من الأرض عند منقطع الجبل. ينظر: المبرّد أبو العباس محمد بن يزيد، **الكامل في اللغة والأدب**، (تحقيق يحيى مراد. ط1. مؤسّسة المعارف للطّباعة والنشر، 1999م) ج1، ص133.

[35] الجاحظ: **البيان والتبيين**، ج1، ص201. والطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ج8، ص39.

[36] ينظر: محمد عثمان عليّ **في أدب الإسلام**، ص692.

[37] ينظر: الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج1، ص378.

[38] ينظر: الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ج5، ص308.

[39] ينظر: مصطفى الشكعة، **الأدب في موكب الحضارة الإسلامية**، ص204.

[40] الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج3، ص229. والمسعودي، **مروج الذهب**، ج2، ص116.

[41] الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ج4، ص285.

[42] ومثال ذلك رسالة معاوية بن أبي سفيانرضي الله عنه الطويلة إلى ابنه يزيد بن معاوية في رقمﷺ.

[43] ومثال استخدام الاقتباس من القرآن الكريم: رسالة معاوية بن أبي سفيانرضي الله عنه إلى ابنه يزيد بن معاوية في ملحق رقم2.

[44]ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، (ط1 بيروت: دار الكتب العلمية، 2001م) ج1، ص40.

[45] النقيبة: النفس والمشورة.

[46] فيَّل رأيه: قبَّحه وخطَّأه.

[47] ينظر: الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ج7، ص193.

[48] هكذا في الأصل، وربما كانت "للعِظَة".

[49]الشعراء: ١٢٨ – ١٢٩.

[50] القلقشندي أحمد بن عبد الله، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ج6، ص387.

[51] محل الشاهد هو استخدام الكاتب التحميد بعد البسملة والعنوان.

[52] وهو واد بين الشام والمدينة، كثير القرى.

[53] ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص155.

[54] الطَّشُّ: المطر القليل، والرَّشُّ والرَّذاذ في معناه. دقعت: من الدقع، وهو الخلوّ النبات. واقشعرت: أصابها التقبض من الجدب. وأغبرت: أُصيبت بغبرة التراب المثار.

[55] تذرو دقاق الأرض: تثير ذرّات التراب. اعتزاز الأرض: صلابتها، والقبول الريح التي تأتي من جهة الشرق. الزِّبْرِج: السحاب الرقيق. متقطّعا متمصّرا الشمال: الريح التي تأتي من جهة الشمال. طحطحت: بدّدت وتفرّقت. الجهام: السحاب الذي لا ماء فيه. ألّفت متقطِّعة وجمعت متمصّرة: أي أن الريح التي تأتي من جهة الشمال قد جمعت ما كان متقطِّعا ومتفرِّقا من السحاب.

[56] حتى انتضد فاستوى: بمعنى ضمّ بعضه بعضا، وصار مستويا. طما: امتلأ بالماء. وطحا: صار منبسطا يملأ الأفق. الجَون بفتح الجيم: السحاب الأسود. والمرثعن: السائل، الوابل: المطر الشديد. والمنهمل: المنهمر. والمنسجل: المنكسب. يردف: أي يتبع بعضه بعضا. الشؤبوب: الدفعة من المطر يرد كلما تتابعت من هذا المطردفعة تبعتها دفعات. العراض: النواحي. اليباب: الأرض الخالية من النبات. والشعاب: المسالك والسبل.

[57] الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج3، ص607.

[58]ومحل الشاهد هو ذكر الكاتب منصبه بعد اسمه، وهو قوله: (من يزيد أمير المؤمنين).